



سوريا الخمسينات شجرة وارفة الظلال. جبل بالآمال. كانت في السياسة موزعة على يمين ويسار. يمين ديمقراطي، يمثله نظام شكري القوطي، على رؤوس بقايا هرمة. متيبة، من الجيل القومي العربي الأول الذي استند نشوته في تحقيق النصر على الاستعمار. وقعد متربعا على حكم تقليدي، منذ أواسط الأربعينات. لكن بلا أفكار جديدة.

وجيل سوري آخر على اليسار. جيل استهوته الآيديولوجيا. أفلنته ماركسية ستالينية. يقودها خالد بكداش. زعيم تاريخي واحد. كردي مستعرب. فصيح في خطابه الشعبوبي. ماهر ومجرّب في دروب السياسة. وتفحّم نيابته البرلمانية ساسة اليمين واليسار، مستعينا بالأرقام الدقيقة عن بطة الإنجاز الحكومي.

لكن أغلبية هذا الجيل السوري الجديد كانت، في الآيديولوجيا، قومية الهوى. مبهورة بشعاراتها (وحدة. حرية. اشتراكية). ويقودها حزب جديد (البعث). نَحَتَ الشعار مثقفو الحزب الدارسون في أوروبا. ولقنوه، في حوار ديمقراطي حر، لشباب الجامعة والثانويات الذين استهوتهم لعبة السياسة.

في زخم هذه الحياة السياسية الصاخبة، أقدم أكرم الحوراني على إجراء تغيير محوري في حركة حزب البعث، بعد اندماجه مع حزبه الاشتراكي، في النصف الأول من الخمسينات.

كان هذا الزعيم المحرك اليومي المؤثر في السياسة السورية، منذ أوائل الأربعينات إلى منتصف السبعينات، عندما اختفى تماماً من اللوحة السياسية العربية، نتيجة للخطأ الفادح الذي ارتكبه.

لم يكن الحوراني مثقفاً. لكنه كان شديد الإيمان بالاشتراكية، إلى حد تقديمها على مبدأ الوحدة القومية. كان الحوراني نزيه الذمة مادياً. كفوا في التنظيم الحزبي. عدم براعته في الخطابة، لم يَنْلُ من إجادته المناورة السياسية والإعلامية. فقد كان مخلوقاً سياسياً، يتنفس. ويدخن السياسة، على مدار الليل والنهار.

كتب الحوراني أهم مذكرات أصدرها سياسي عربي معاصر، لتراثها في التفاصيل. ونشرت «الشرق الأوسط» معظمها في التسعينات.

ولعل القارئ يذكر أنني تابعت التعليق عليها أسابيع طويلة. مع ذلك، فلم يورد الحوراني الدهنية حرفاً واحداً، عن دوره غير المباشر، في كارثة وصول عسكر الطائفة العلوية إلى حكم سوريا منذ منتصف السبعينات إلى اليوم!

بحكم نفوذه في الجيش السوري، بعد سقوط ديكاتورية صديقه/ عدوه أديب الشيشكلي (1954)، تمكن الحوراني من توظيف أعداد غفيرة، من الشباب العلوبيين، بعثيين وغير بعثيين، في خدمة الحزب، عبر دفعهم إلى الانخراط في الجيش.

ماذا كان هدف الحوراني والقيادة السياسية البعثية (ميشيل عفلق وصلاح البيطار) من عسكرة الطائفة العلوية؟ لم يكن الزعماء الثلاثة من هذه الطائفة. غير أنني أكشف هنا سرا، فأقول إن الثلاثة ضاقوا ذرعاً بمجتمع سوري محافظ. وجدوا أن فرض اشتراكاتهم عليه، من خلال أقلية الحزبية البرلمانية، أمر يكاد يكون مستحيلاً. على عكس الدمشقيّين عفلق والبيطار، فقد كان الحوراني من وسط سوريا (مدينة حماه)، حيث شعر بوطأ الإقطاع على الحياة الريفية التي شكل فيها العلوبيون فئة الفلاحين الفقراء آنذاك.

وإنصافاً للرجل، أستطيع أن أقول إنه لم يكن ضد الديمقراطية كلها. لكن بمنطق الزمن الطائفي الراهن، لم يدرك الحوراني، وهو من الطائفة السنّية، بل مرتبط بالقرابة مع الأسر السنّية الإقطاعية في حماه، أنه سيدمّر الحياة الديمقراطية الوليدة، بعسكرة طائفة أقلوية صغيرة (8 بالمائة في تقديرِي الشخصي) متلهفة للتغيير. ولا تعترف طائفتنا السنّة والشيعة بمذهبها الدينـي.

لماذا غدر الضباط البعثيون العلوبيون بالحوراني. ثم بعفلق والبيطار؟ الواقع أن الرهان الطائفي العلوـي كان، أصلـاً، على «الحزب السوري القومي» كذراعٍ للوصول إلى السلطة والحكم. ثم حولـوا الرهـان. فركـبوا عـربـة حـزـب «الـبعـثـ». كان «الـبعـثـ» في عـروـبـته أـكـثـر قـبـولاً لـدىـ السـورـيـينـ، من حـزـب تـجاـوزـ العـروـبةـ وـالـإـسـلـامـ. وـاعـتـنـقـ مـبـادـئـ الفـاشـيـةـ الـأـوـرـوـبـيـةـ التـيـ سـُـحـقـتـ فـيـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـةـ الثـانـيـةـ.

انتهز ضباط البعث العلوبيون استقالة زعماء الحزب الثلاثة (الحوراني. البيطار. عفلق) من ناصرية نظام جمال عبد الناصر. فشكلـوا خـلـيـةـ سـرـيـةـ باـسـمـ (الـجـنـةـ الـعـسـكـرـيـةـ). وـكانـ الأـعـضـاءـ الـفـاعـلـوـنـ فـيـهاـ ضـبـاطـهـمـ الـثـلـاثـةـ: اللـوـاءـ مـحمدـ عمرـانـ. المـقـدـمـ صـلاحـ جـدـيدـ. النـقـيبـ الطـيـارـ حـافـظـ الأـسـدـ.

بادرت اللجنة العسكرية إلى الكيد للحوراني بمكر ظاهر. كانت التهمة أنه أيد نظام الانفصال اليميني الذي فصـمـ الوـحدـةـ السـورـيـةـ الـمـصـرـيـةـ بالـانـقلـابـ عـلـيـهـ (1961).

عشـتـ معـ أـكـرمـ الحـورـانـيـ الشـهـرـ الـأـخـيـرـ فـيـ حـيـاتـهـ السـيـاسـيـةـ. ظـلـ يـذـرـعـ بـهـوـ صـحـيـفـةـ «ـالـشـامـ»ـ الـتـيـ أـعـمـلـ فـيـهاـ. وـلـاـ يـضـيءـ لـيـهـ سـوـىـ بـصـيـصـ سـيـجـارـتـهـ الـمـعـلـقـةـ دـائـمـاـ بـشـفـتـهـ. وـصـدـقـ حـدـسـهـ. فـقـدـ تـبـعـ الـانـقلـابـ الـعـرـاقـيـ عـلـىـ نـظـامـ عـبدـ الـكـرـيمـ قـاسـمـ، انـقلـابـ سـورـيـ جـاءـ بـالـضـبـاطـ الـمـسـتـقـلـيـنـ. وـالـنـاـصـرـيـيـنـ. وـالـبـعـثـيـيـنـ، مـعاـ إـلـىـ الـحـكـمـ (1963).

مع الظهور العلـنيـ لـضـبـاطـ الطـائـفـةـ العـلوـيـةـ عـلـىـ مـسـرـحـ السـيـاسـيـةـ، فـرـ أـكـرمـ الحـورـانـيـ منهـياـ حـيـاتـهـ السـيـاسـيـةـ. معـ غـيـابـ الحـورـانـيـ، رـاقـتـ لـعـبـةـ توـظـيـفـ الـعـسـكـرـ فـيـ السـيـاسـيـةـ، لـزـمـيلـهـ الـلـدـوـدـيـنـ. فـقـدـ سـارـعـ عـفـلـقـ إـلـىـ إـضـفـاءـ الشـرـعـيـةـ «ـالـبـعـثـيـةـ»ـ عـلـىـ الـلـجـنةـ الـعـسـكـرـيـةـ الـعـلوـيـةـ، بـعـدـمـ قـرـرـ هوـ اـسـتـيـلـاءـ الـحـزـبـ عـلـىـ السـلـطـةـ وـالـحـكـمـ فـيـ سـورـيـاـ. بـلـ اـعـتـبـرـ صـلاحـ جـدـيدـ اـبـنـهـ «ـالـرـوـحـيـ»ـ! أـمـاـ الـبـيـطـارـ الـذـيـ كـانـ قـدـ اـسـتـقـالـ سـراـ مـنـ الـحـزـبـ، فـقـدـ رـاهـنـ عـلـىـ اللـوـاءـ الـعـلوـيـ الـلـيـبرـالـيـ مـحمدـ عمرـانـ. عـلوـيـةـ عمرـانـ لـمـ تـغـفـرـ لـلـيـبرـالـيـةـ. فـقـدـ اـغـتـيـلـ فـيـ عـصـرـ الأـسـدـ الأـبـ. أـينـ؟ـ آـهـ!ـ فـيـ الجـيـبـ السـكـانـيـ الـعـلوـيـ فـيـ أـعـالـيـ مـدـيـنـةـ طـرابـلسـ السـنـنـيـةـ الـلـبـنـانـيـةـ. وـأـمـاـ عـفـلـقـ فـقـدـ فـرـ مـلـاحـقاـ بـحـكـمـ إـعـدـامـ «ـأـنـعـمـ»ـ بـهـ حـافـظـ الأـسـدـ عـلـىـ مـؤـسـسـ الـبـعـثـ وـمـفـكـرـهـ الـرـوـمـانـسـيـ، فـيـماـ يـحـتـفـلـ هـوـ بـتـنـصـيبـ نـفـسـهـ مـحلـهـ قـائـدـاـ لـلـبـعـثـ، وـرـئـيـساـ لـسـورـيـاـ!

عرف صـلاحـ جـدـيدـ كـيـفـ يـصـلـ مـدـمـراـ الـخـصـومـ وـالـأـصـدـقـاءـ وـالـرـفـاقـ فـيـ طـرـيقـهـ. لـكـنـهـ لـمـ يـعـرـفـ كـيـفـ يـحـكـمـ. وـصـلـ حـافـظـ الأـسـدـ. حـكـمـ ثـلـاثـيـنـ سـنـةـ. ثـمـ وـرـثـهـ لـابـنـهـ. فـأـحـرـقـهـ الـوـرـيـثـ. وـأـحـرـقـ وـدـمـ سـورـيـاـ مـعـهـاـ. دـمـ تـسـيـيسـ الـجـيـشـ. وـتـخـرـيـبـهـ. وـ«ـتـطـيـيفـهـ»ـ بـلـدـيـ سـورـيـاـ.

كنت أود تذكير شباب الانتفاضات والثورات العربية، بعدم السماح لأنظمة الجمهورية الجديدة «بأخونة» الجيش. فلا ديمقراطية حقيقة بتحزيب المؤسسات العسكرية والأمنية. سبقني الديك الروسي في قمة آيرلندا. فقد أقنع دجاجات أميركا وأوروبا، بإدراج نصيحته الغالية في بيان القمة، بدعوة السوريين إلى الاحتفاظ بضباط الطائفة والحزب، لمواصلة القتل والتدمير في سوريا!

مع وصول حافظ الأسد إلى السلطة (1970)، أحكم ضباط الطائفة العلوية احتلال الحكم والسلطة. أين كان السوريون؟ كانوا مغيّبين عن الوعي! فقد أدار ضباط الطائفة عملية الوصول «باسم الشعب»! لكن بحسب الحقائق عنه، كنت بحكم عملي أحد القلة من الشهداء المستقلين. ولم أكن أدرى أنني سأروي يوماً رواية أمينة تختلف عن الروايات الحزبية، لبعض ما حدث للسوريين خلال غيابهم عن الوعي.

لكن كيف حكم حافظ الأسد؛ كيف أدار معركته مع «الإخوان»؛ لماذا اغتيل صلاح البيطار؛ ماذا حدث لعقل القابع في قفص صدام الذهبي.

لماذا حدثت مجزرة حماه؛ كيف ورط ضباط الطائفة عبد الناصر في حرب النكسة؛ لعل العمر يسمح بالكلام. بعدما عجزنا نحن القلة التي عرفت، عن الكلام وهي في سن الشباب.

الشرق الأوسط

المصادر: